الخلفيّة البيبليّة لألقاب المسيح في قول ١: ١٥-٢٠

الأخت روز أبي عاد

مقدمـــة

يشكّل قول ١ : ١٥-٢٠ نشيد تعظيم للمسيح الذي به خُلق العالم (آ ١٥-١٧) وبه تجدّد (آ ١٨-٢٠). لا نجد في هذا النشيد أيّ استشهاد لبولس من العهد القديم، ولكنّ خلفيّة الألقاب التي يضفيها الرسول على المسيح تغرز جذورها في العهد القديم، فتأخذ منه معناها لتثمر ثمر العهد الجديد، حتى ما بتعرّضها لشمس المسيح ينجلي "السرّ الذي ظلّ مكتوماً طوال الدهور والأجيال وكُشف اليوم لقدّيسيه" (قول ١ : ٢٦).

ثلاثة ألقاب للمسيح مقتبسة من العهد القديم ترد في هذا النشيد: إنه "صورة الله"، و"بكر كلّ خليقة" و"حكمة الله الأزليّة"؛ فاللقبان الأوّلان يذكرهما بولس بوضوح، فيما أن اللقب الثالث نستوحيه من نصوص بيبليّة تتوازى فيها الحكمة والمسيح يسوع بأزليّتها ومكانتها ودورها في عملية الخلق[1].

أ- المسيح صورة الله

ترد كلمة צֶלֶם: "صورة"، ثلاثون مرّة في العهد القديم، وهي غالباً ما تعني التشابه الخارجي لشئٍ ما تحت شكل رسم أو تمثال ١؛ أمّا في مز ٣٩: ٧ فتأخذ معنى مجرّداً بحيث تعني طبيعة الحياة البشريّة غير الجوهريّة، وهذا ما رمزت إليه الترجمة اليسوعيّة[2] بـ "الظلّ"، أو بـ "الخيال" الذي يحتفظ به الانسان لدى استيقاظه من الحلم (مز ٧٣ : ٢٠).

بالإضافة الى التشابه المادّي الذي تعنيه كلمة "صورة" في الاستعمال العبري، تُستعمل كلمة צֶלֶם في الأرامية لتعني بدورها "الصورة" أو "التمثال"[3]، كما تُستعمل أيضاً لوصف تغيّر منظر وجه الملك نبوكدنصر تجاه الذين أبوا السجود للتمثال الذي نصبه هو نفسه[4].

هناك أيضاً لفظة דְּמוּת: ، "مثال" وهي مشتقّة من فعل דָּמָה، وتعني: "يشبه". أمّا ورود الكلمتين المترادفتين، "صورة" و"مثال"، بالتّتالي، فيُقصد به التشديد على فكرة المشابهة، أكان ذلك بين الله والانسان أو بين آدم وابنه[5].

في قوله "لنصنع الانسان على صورتنا كمثالنا"، يحدّد الله هويّة الانسان، وبالتالي فالرجل والمرأة خُلقا كلاهما نظير صورة الله أو شبهها. من البديهي ألاّ تنساب هذه المشابهة بسهولة إلى المنطق البشري، بل توقعه في حيرة بسبب الغموض الناتج عن كون الله لا جسد له، فيما أن جسد الانسان يعود الى التراب. هذا الغموض يمكن تبديده إذا وضعنا قصة الخلق في إطارها الكتابي، بحيث نتبيّن أن كل عمل خلق يبدأ بإعلان، "وقال الله"، ويتبعه فعل أمر، "ليكن"، ثم تقرير، "وكان كذلك"، وتقييم من لدن الله، "ورأى الله أن ذلك حسن"، وإطار زمني، "يوم..."؛ في حين أن خلق الانسان يرد بأسلوب آخر فيبدأ الكلام بـ "لنصنع الانسان"، وهذا المدخل بحدّ ذاته، بغضّ النظر عن معناه الدقيق، يسترعي الانتباه المباشَر لخلق الانسان، إذ

١- نذكر على سبيل المثال عد ٣٣: ٥٢؛ ١صم ٦: ٥، ١١؛ ٢مل ١١: ١٨؛ ٢أخ ٢٣: ١٧؛ حز ٧: ٢٠؛ ١٦: ١٧؛ ٢٣: ١٤؛ عا ٥: ٢٦.

٢- **الكتاب المقدّس**، دار المشرق، بيروت ١٩٨٩.

٣- راجع دا ٢-٣.

٤- دا ٣: ١٩.

٥- راجع تك ١: ٢٦؛ ٥: ٣.

ينطوي على أوج معنى عملية الخلق، أضف اليه الاستفاضة في وصف خلق الانسان بالمقارنة مع سائر المخلوقات. كذلك ترداد فعل : ברא "خلق" (ثلاث مرّات في تك ١:٢٧)، ومنح الانسان السلطة على كلّ البرايا، وأخيراً تقييم الله لخلق الرجل والمرأة بأنّه "حسن جداً"؛ كلّ ذلك يؤول إلى أنّ الانسان يحتلّ المركز الأول في نظام الخلق.

ممّا تقدّم يمكننا أن نستخلص:

- أن صورة الله في الانسان تمنحه الكرامة والأولوية من خلال المكانة المميّزة التي يخصّه بها الله.
- أن صورة الله هي ذكر وأنثى في آنٍ معاً[٦]، وبالتالي فإن الشبه يركّز بالحريّ على القدرات والكفاءات كالشخصية والتفكير المنطقي. لذا فالانسان هو على صورة الله في كيانه وليس في مظهره الخارجي، وهذا يلتقي بالنظرة البيبلية إلى الانسان ككائن غير مجزّأ.

أمّا في العهد الجديد فإن كلمة εικων اليونانية، "صورة"، تحمل معاني مختلفة: شكل، هيئة، صورة مادية، تعبير ملموس لحقيقة غير منظورة، ولهذا تشارك الصورة بحقيقة ما تنقله.

عند بولس ترد لفظة "صورة" تسع مرّات، وهو حيناً يتكلّم عن المسيح "صورة الله اللامنظور" (٢ كور ٤:٤: قول ١ : ١٥)، وحيناً آخر عن الانسان صورة الله ومجده (١كور ١١ : ٧؛ قول ٣ : ١٠)[٧]؛ أمّا في قول ١ فالمسيح يكشف لنا صورة الله اللامنظور من خلال الفداء ومغفرة الخطايا (١ : ١٣)، والمصالحة (١ : ٢٠)، والمشاركة في ملكوته (١ : ١٣).

بعد السقطة الأولى لم يُذكر قط أنّ أي انسان كان على صورة الله، فالمسيح وحده هو الذي يستعيد هذه الصورة المفقودة ويمنحها للانسان ليتجدّد روحاً وذهناً، فيلبس الانسان الجديد الذي خُلق على صورة الله في البرّ وقداسة الحق[٨].

إن تعبير "المسيح صورة الله" يحمل طابع الألوهة بامتياز، وبالفعل، فإننا نجد في العهد الجديد عدّة أعمال تخصّ الله أُسندت إلى المسيح كالخلق (راجع ١ كور ٨ : ٦؛ يو ١ : ٣)، أو السلطة (راجع ١ كور ١٥ : ٢٤-٢٥)، أو القضاء (١كور ٣: ٤-٥)؛ كذلك هي الحال في ما يخصّ عدّة صفات إلهية، من بينها لقب "الرب"؛ أمّا لقب "صورة الله" فيعني أن المسيح المتجسّد هو تجلّي لله، وصورته هي مشاركة في جوهر الحقيقة الالهية وكيانها. فهل نغالي بعدها إذا قلنا مع بولس إن المسيح "هو فوق كلّ شيء إله مبارك أبد الدهور" (روم ٩ : ٥) لأنّه به وحده دون سواه "شاء الله أن يحلّ الكمال كلّه" (قول ١ :١٩).

ب- المسيح بكر كلّ خليقة

البكر في العهد القديم هو المولود الذكر فاتح الرحم، حيواناً كان أو انساناً، علماً أنّه لا يفقد لقبه إذا لم يُرزَق أهلُه بأولاد بعده. للبكر قيمة مميَّزة إذ يشارك الأب في سلطته (راجع مز ٨٩ : ٢٨)، كما يرثه في المُلك (راجع تك ٤٨). من هنا نلحظ الإنعام الذي يحظى به بالنسبة إلى اخوته (راجع خر ١٣ : ١١-١٦)، وربّما التشابه في الأحرف بين البكرية والبركة ليس من قبيل الصدفة، لأن بركة الأب يجب أن يحظى بها الولد البكر.

في مرحلة أولى كانت تقدمة البكر تعتبر كفعل شكران لله على إنعاماته، بحيث تُستبدَل عطية الله بعطية الانسان. فبما أنّ الله هو السيد المطلق الذي يملك كلّ شيء، إذاً فالانسان البكر والحيوان البكر وبواكير الأرض عليها أن تقدّم له، بناءً على المفهوم القائم بأن الجزء يمثّل الكلّ. وعليه، فبتقديم البكر أو الباكورة، تُقدّم لله العائلة أو القطيع أو الموسم بجملته[٩].

في مرحلة ثانية ارتبطت تقدمة

٦- راجع تك ١ : ٢٦-٢٨؛ إر ٣١ :٣٢.

٧- راجع أيضاً روم ١ : ٢٣؛ ٨ : ٢٩؛ ١كور ١٥ : ٤٩؛ ٢كو ٣ : ١٨.

٨- راجع أف ٤ : ٢٤.

٩- راجع خر ١٣ : ٢-١٦؛ عد ٣ : ١٢-١٦؛ نحميا ١٠ :٣٥-٣٧.

البكر بعيد الفصح اليهودي: فالرب الذي خلّص أبكار العبرانيين يطلب أن يقدَّسوا له[١٠]، أي أن يكونوا وقفاً له، وهذا ما يؤمّن استمرارية بنوّة إسرائيل لله، إذ من خلال تبنّيه للأبكار يتبنى الله إسرائيل كلّه، فيغدو كلّه "ابنه البكر" (خر ٤ : ٢٢)، أي خاصته، لكيما تتقدّس به كل شعوب الأرض.

أمّا طريقة تقدمة الأبكار فتختلف بين الوثنيين والعبرانيين، بحيث أن الوثنيين يذبحون أولادهم ويحرقونهم على المذبح، في حين أن أبكار العبرانيين يُقَدَّمون للرب كقربان حي، فيقفون كلّ قوّتهم الجسدية وطاقتهم العقلية لخدمته؛ وبذا عليهم أن يخدموا الكهنة في الهيكل، ولكن بما أن هذه الخدمة أُسندت لاحقاً الى اللاويين (راجع عد ٣)، فلقد طُلب من الشعب أن يفدي أبناءه الأبكار بدفع خمسة مثاقيل عن كلّ واحد إلى هارون وبنيه[١١].

من أهم معاني تقديم البكر ضمانة استمرارية العهد مع الله، وبالتالي ثبات علاقة إسرائيل بالله؛ فالله الذي يتبنّى بكر كلّ عائلة يحظى تلقائياً بسائر الأخوة، ورمزياً بالجيل الذي يلي، ممّا يجعلنا نستخلص أهمية حدث ولادة الولد البكر في العائلة.

في العهد الجديد ترد كلمة "بكر" ثماني مرّات، منها مرة واحدة بالمعنى الحرفي (رج لو ٢:٧)، أمّا المعاني الأخرى فهي مجازية[١٢]. بالنسبة إلى الرسول بولس، فهو يطبّق لفظة "بكر" دائماً على المسيح كونه بدء الخلق ومبدأ الوحدة والتماسك لكل المخلوقات، هو الكائن قبل كل شيء وفوق كل ما هو مخلوق (رج قول ١ : ١٥-١٧)، ثم إنّه حبيب الله[١٣]، وموضوع سروره[١٤]، "وفيه شاء أن يحلّ الكمال كلّه"[١٥]، هو الوسيط بين الله والناس[١٦]، وأخيراً إنّه الغاية السميا التي يصبو إليها الكون، وبها يجد السلام والوحدة مع الله.

خلاصة القول، إن البكرية تمنح المسيح السيادة على الخليقة بأسرها، والأولوية على كل الخلق، والتفوّق بامتياز عليه من حيث أنه الأصل والأساس والرأس، تماماً كالحكمة التي تقود الناس وسائر المخلوقات نحو العدل والقداسة.

ج- المسيح حكمة الله

بعد لقَبي "صورة الله" و "بكر كل خليقة" اللذين يضفيهما بولس الرسول على المسيح، يكمل ثناءه له بمدحه بتعابير ومصطلحات أُسندت في العهد القديم الى الحكمة الأزليّة.

وبالفعل، فالحكمة تُعطى دوراً بالغ الأهميّة في معرض علم نشأة الكون، كذلك الأمر في ما يخصّ مكانتها الأوليّة المتعلّقة بتدرّج خلقه. تسلّط النصوص الحكميّة[١٧] الأضواء على بعض خصائص الحكمة:

هي تفوق غيرها من حيث إنّها بدء أعمال الله، تخرج من فمه (سي ٢٤ : ٣)، تنبثق من جبروته، تفوح من مجده، تعكس ضياءه الأبدي وتنشر أعماله وطيبته (أم ٨ : ٢٦-٢٧)، وبالتالي فهي بكره، كما أنّها المبدأ الموحِّد لسائر المخلوقات، تتميّز عن غيرها بمرافقتها لله أثناء عملية الخلق[١٨]، فتؤدّي دوراً نشيطاً فيه[١٩] كونها من خاصة الله؛ إنها أبدية كالذي خلقها (أم ٨ : ٢٣-٢٤)، حاضرة دائماً قربه لوضع أعماله موضع التنفيذ

١٠- راجع عد ٣ : ١٣؛ ٨ : ١٧.
١١- راجع خر ١٣ : ١٣، ١٥؛ عد ٣ : ٤٧.
١٢- راجع روم ٨ : ٢٩؛ قول ١ : ١٥، ١٨؛ عب ١ : ٦؛ ١١ : ٢٨؛ ١٢ : ٢٣؛ رؤ ١ : ٥.
١٣- راجع مت ١٧ : ٥؛ مر ٩ : ٧؛ أف ١ : ٦.
١٤- راجع مت ٣ : ١٧؛ مر ١ : ١١؛ لو ٣ : ٢٢.
١٥- راجع قول ١ :١٩؛ ٢ : ٩.
١٦- ١طيم ٢ :٥.
١٧- أم ٨ : ٢٢-٣١؛ سي ٢٤ : ٣-١٢؛ حك ٧ : ٢٢-٨ : ١.
١٨- راجع أم ٣ :١٩؛ مز ١٠٤ : ٢٤.
١٩- كما تؤكّد لنا النصوص أم ٣ : ١٩-٢٠؛ حك ٧ : ٢١؛ ٨ : ٢٦؛ ٩ : ١-٢.

(أم ٨ :٢٦-٣٠)، تعرّف عن ذاتها كشخص، تتكلّم، هي في نعيم عند الله وفي الوقت عينه مع بني البشر، تتمتّع بسلطة على كلّ شعب وكلّ أمّة.

فإذا وضعنا هذه النصوص بموازاة قول ١ :١٥-٢٠، يظهر جليّاً أن في المسيح يسوع تجد حكمة الله الحقّة ملء معناها، بحيث ينجلي للمؤمنين أنّه الكائن منذ الأزل وقبل كلّ خليقة، به يتوطّد كلّ موجود؛ إنّه الوسيط بين الله والكون بأسره، فيه تجد كلّ العناصر المخلوقة وحدتها وتماسكها، والوساطة التي يؤدّيها لا تشكّل أساس الوجود وحسب بل تصبو به، في الوقت عينه، الى غايته السميا.

فهل يمكننا بعد التطبيق البيّن والمدهش للصور واللغة الحكميّة على المسيح إلاّ أن نؤكّد أنه هو بذاته ظهور حكمة الله الأزليّة بذاتها وتجلّيها وتجسيدها؟

خاتمة

يُثبِت النشيد في الرسالة الى أهل قولسي تفوّق المسيح بنوع بارز؛ فأوّل لقب له، "صورة الله"، يعرّفنا على الله الخالق، ويكشف لنا حبه في الخلق والفداء ومغفرة الخطايا (راجع قول ١ : ١٣)، والمصالحة (١ : ٢٠)، والمشاركة في ملكوت الابن الحبيب (١ : ١٣). أمّا لقبه، "بكر الخلائق كلّها"، فيشير إلى دوره الحاسم بالنسبة إلى سائر الأعضاء المتعلّقة به، هذه السيادة الكونية للمسيح يدعمها المعنى المجازي للفظة "رأس"، حيث أنّ إنعام البكرية تمنحه الاولوية الشاملة والكاملة على كلّ ما في السماوات وما في الأرض، بما فيه أصحاب العروش والسيادات والرئاسات (١ :١٦). يبقى أن المسيح الذي يتقلّد كلّ خصائص الحكمة الخالقة : التشخيص، الأزلية، الأصل الإلهي، السلطة المطلقة، مبدأ الوحدة، التماسك بين سائر المخلوقات، المشاركة في الخلق، يأخذ على عاتقه العمل الخلاصي بشموليته، فيضيف إلى بكريته في الخليقة بكريته في القيامة من الموت.

المراجع

Buscemi, A. M., *Gli inni di Paolo una sinfonia a Cristo Signore*, Analecta 48, Jerusalem 2000.
Curtis, E.M., "Image of God", in: *The Anchor Bible Dictionary*, III, 389-391.